المحاضرة السابعة: المنطلقات التاريخية لفلسفة اللغة: إشكالية أصل اللغة والألسن:

مقدمة

تعتبر مسألة أصل اللغة وتعدّد الألسن من أقدم الإشكالات الفلسفية التي حاول الإنسان من خلالها فهم ذاته وطبيعة تفكيره وحدود تواصله مع الآخرين. فاللغة ليست مجرد وسيلة للتعبير، بل هي أداة لتشكيل المعرفة وبناء العالم الرمزي. وقد انطلقت فلسفة اللغة تاريخياً من التساؤل عن نشأة اللغة: هل هي فطرية أم مكتسبة؟ إلهية أم بشرية؟ طبيعية أم اصطلاحية؟ ومن هذا التساؤل تفرّعت نظريات متعددة حاولت تفسير كيفية ظهور الألسن واختلافها عبر الثقافات.

في الحضارات القديمة، ارتبطت اللغة بالأساطير والتفسيرات الدينية. فقد اعتقدت بعض الثقافات بوجود لغة أولى مقدسة تمثل أصل جميع اللغات، وربطت نشأة الألسن بقصص الخلق. ومع الانتقال إلى الفلسفة اليونانية، بدأ التفكير العقلاني في طبيعة اللغة، خاصة في محاورة "كراطيلوس" لأفلاطون التي طرحت جدلاً حول ما إذا كانت الأسماء تعكس طبيعة الأشياء أم أنها مجرد اتفاق اجتماعي. وقد فتح هذا الجدل الباب أمام نقاشات طويلة حول العلاقة بين اللفظ والمعنى. أما أرسطو فقد قدّم تصوراً منطقياً للغة باعتبارها رموزاً للأفكار، وربط بين اللغة والمنطق والتصنيف العقلي للعالم.

1.نظريات نشأة اللغة

تعددت النظريات حول أصل اللغة، فكانت كل واحدة منها تعكس تصورًا معينًا لطبيعة الإنسان وعلاقته بالكلام:

نظرية التوقيف: ترى أن اللغة موهبة فطرية أو توقيف إلهي، كما نادى بها الفيلسوف اليوناني أفلاطون، واعتبرها ابن فارس وابن حزم كذلك. يعتمد أصحاب هذه النظرية على مصادر دينية مثل التوراة لتأكيد أن اللغة وُهبت للإنسان مباشرة.

نظرية المحاكاة: تفترض أن الإنسان بدأ اللغة بمحاكاة الأصوات الطبيعية المحيطة به، كأصوات الرياح والحيوانات والمياه، وهي ما يعرف عند علماء الغرب بـ .Onomatopoeia وقد دافع عنها هيردر وماكس مولر لاحقًا.

نظرية المواضيع والاصطلاحات: تعتبر اللغة نتاج اتفاق بين أفراد المجتمع على تسمية الأشياء، كما ذكر ابن جني، وهو تصور يظهر الجانب الاجتماعي والتعاوني للغة.

نظرية التنفيس عن النفس: ترى أن اللغة نشأت من التعبير عن المشاعر الإنسانية، كالفرح والخوف والرغبة، وأن هذه الأصوات العاطفية تطورت عبر الزمن لتصبح ألفاظًا منظمة.

نظرية الاستعداد الفطري: تقول إن الإنسان خُلق بقدرة فطرية على التواصل والتعبير عن أغراضه، وهذه القدرة تظهر عند الحاجة، كما لاحظ ماكس مولر من خلال ملاحظة الأطفال.

نظرية الدلالة أو الملاحظة: برهن جيجر على أن أقدم الأصوات اللغوية كانت مرتبطة بأعمال الإنسان أو إشاراته، وأن الكلمات تطورت تدريجيًا من هذه الأصوات.

نظرية التطور اللغوي: تأثرت بنظرية داروين، وترى أن اللغة الإنسانية مرت بمراحل فطرية متعددة، تتماشى مع مراحل التطور العقلي للبشر. (الاسلام، 2022)

2.تصنيف اللغات وأصولها

انطلاقًا من النظريات التاريخية والدينية، يرى الباحثون في الإسلام أن الإنسان الأول، آدم، هو منشأ اللغة، ومن ذريته تفترعت الشعوب إلى سامية وحامية ويَافِثِية. وقد قسم العلماء الحديثون اللغات البشرية إلى فصائل رئيسية بناءً على القرابة اللغوية والخصائص الصوتية والنحوية، منها:

الفصيلة اليافثية أو الهندية–الأوروبية: وتشمل اللغات الأوروبية واليونانية والفارسية.

الفصيلة الحامية–السامية: وتشمل العربية والبابلية والأكادية والربرية وغيرها.

الفصائل الأخرى: الطورانية، اليابانية، الصينية–التبتية، الكورية، القوقازية، البنطوية، الأمريكية، إلخ.

كما تقسم اللغات حسب الموقع الجغرافي إلى: آسيوية، إفريقية، أوروبية، أمريكية، أسترالية، وحسب الانتماء العائلي إلى: العائلة الهندية–الأوروبية، العائلة السامية–الحامية، العائلة الطورانية.